

التسلسل الزمني في نقل الحديث النبوي كتابة

من عصر النبوة إلى عصر التدوين

د. محمد قمر علي

أستاذ بقسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور

CONTINUAL TRANSCRIPTION OF HADITH FROM PROPHET'S PERIOD TO COMPILATION PERIOD

Muhammad Qamar Ali, PhD

Professor of Arabic, Punjab University Oriental College, Lahore

Abstract

Hadith of the holy Prophet (PBUH) is a major source of guidance for the Muslim Ummah. The companions of the holy Prophet (PBUH) practiced the Hadith in a way as it became part of their daily life. They took pains to save the Hadith of the holy Prophet (PBUH) as they did in case of the holy Qur'an. It is why that the tradition of an organized and continual narration of the Hadith is strong and rich even in modern times. Books on Hadith literature have been compiled in different styles in different periods on the basis of the tradition set by the companions of the holy Prophet (PBUH). This article focuses upon the continuity of Hadith transcription from the period of the holy Prophet (PBUH) to the period of Hadith compilation.

Keywords: القرآن، الحديث النبوي، آدم، حواء، كلام، الناس،

المستشرقون، القراء، الكتابة، المؤطا

إن الله سبحانه وتعالى أمر آدم وحواء وإبليس جميعهم أن يهبطوا إلى هذه الأرض ليعيشوا بها، وكان آدم عليه السلام قد اتعبه التعب شديداً لما تبينت له عداوة إبليس له، وكان قبل ذلك قد اغتر بكيده ومكره، فأزله وزوجه الشيطان وأخرجهما مما كانا فيه، فنصحا أولادهما أن يكونوا على حذر شديد من مكايدهم عدوهم المبين إذ كان أقسم بالله وآلى إيلاء موثقا بأنه يعقد على طرفهم ويغويهم جميعهم، فما زال ينسج لإغوائهم مكايده، ويصنع لاغرائهم صنائع حتى نجح في إغواء عدد كبير منهم الذين لا يميزون بين الحق والباطل فاتبعوه، فانقسم الناس إلى حزبين حزب الله وحزب الشيطان، وبدأ الصراع العنيف بينهما، وما زال أولياء الشيطان يملسون الشكوك في أذهان عباد الله ليضلوهم عن سواء السبيل، فأرسل الله تعالى الأنبياء والرسل لهداية الناس وإيقاظ لعهد الذي عهد به آدم عليه السلام، ولما أحس الشيطان وحزبه اهتمام الناس بهدى الأنبياء والرسل وظنوا أنهم سينجحون ويفوزون حاولوا أن يغيروا تعاليم الأنبياء وسنن الرسل، فقام إزاءهم عدد من عباد الله ليردوا في وجوههم مكايدهم وليقتضوا عليها قضاء مبرما.

ولما بعث سيد الأولين والآخرين إمام المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله النبي الأمي، تمت الحجة وجاءت البراهين والأدلة وما بقي خلل إلا سده الله سبحانه وتعالى بالبرهان والسلطان، وأيد رسوله الكريم بالمعجزة الكبرى القرآن، فظهر الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقاً، فكسدت سوق الشيطان، وشرعت تخرب ديارهم، وتمحى آثارها، فاجتمعوا يفكرون في الأمر، فمنهم من استعجل وأنكر القرآن، وكونه كلام الله وينقلونه وينتصصون منه وينشون في نصوصه المباركة الكريمة شكوكا وشبهات وهي سامية من تلك الدسائس المنيئة المسفلة، عالية مرتفعة عنها، ومصونة من جانب الله العلي المتعال.

وعند ما ردت تلك الأكاذب في وجوههم ودبروا خطة أسوء وأفحش

وأخطر وأعنف ، ودرسوا دسائس في سيرة رسول الله ﷺ وسنة وهاجموا عليهما هجمات متنوعة مختلفة من حيث مشروعيتهما إلى ثقافتهما وما إلى ذلك. ومن بين تلك الهجمات العنيفة كانت هجمة علي السنة من حيث عدم التسلسل في نقلها من عصر النبوة إلى عصر التدوين، وقد يحول بينهما قرن أو أكثر فمن أين نبعث الأحاديث فجأة، فجاء المؤرخا للإمام المالک وغيره من كتب الحديث وإن كانت الأحاديث تنقل في تلك الحقبة قبل عصر التدوين، فكان الاعتماد في نقلها على الذاكرة كليا، ولم تكن صلاحية الحفظ والمذاكرة عند جميع رواة الحديث في القوة والضبط على السواء. فلذلك لا يمكن الاتكاء في الأحكام الشرعية على شيء ينتقص ثقافته، وقد أكد عليه المستشرقون وتناولوه بينهم واتبعهم في ذلك هؤلاء الذين يعدون أنفسهم بين الأمة المسلمة واعتروا بغزارة علمهم وسعة ثقافتهم حتى صارت عندهم أصول متقررة لا يجوز التحويل عنها، يقول بسقف:

All this meagre as it is, sums up our written evidence prior to the Islamic revelation. Although the Quran itself was committed to writing during the Prophet's lifetime, and although from then on we have a thin trickle of non-inscriptional documents on papyrus or paper (letter, contracts and so on) the main tradition still remained for a century and a half firmly oral in character. Early poetry (attributed to the beginning of the sixth century A.D) the prose accounts of pre-Islamic tribal history, even the account of the Prophet's own life and sayings-every thing of this nature was transmitted orally, with all that this implies in possibilities of verbal variation and did not receive the permanent stabilization of being recorded in writing as a regular thing until the eight century.(1)

وهذا هو الرأي المعتدل وليس هدف المقالة إثبات كتابة الحديث أو علمها في العصر الذي سبق عصر التدوين، مع هذا فقد ذكر الكاتب عدم كتابة الحديث عموماً قبل القرن الثامن الميلادي، وإن جاء ذكره ضمنياً، وأما هؤلاء الذين اهتموا اهتماماً شليداً وعنوا عناية بالغة في إظهار عدم كتابة الحديث في عصر النبوة والخلفاء الراشدين، حتى مضى القرن الأول وأكثر بعد مجي الإسلام فنهض عدد من علماء الحديث ليملئوه في الدواوين وكان قبل ذلك ينقل شفاهة، فيريدون أن ينشؤوا شكوكاً حول مجموعة الأحاديث التي وصلت إلينا، وموقفهم هذا أخطر وأعنف من الذين ينشؤون شكوكاً حول القرآن العظيم، لأن العلماء يقومون ضلهم في الدفاع عن القرآن العظيم، ويصمدون أمامهم ليردوا إليهم دسائسهم وهم في ذلك على حذر شليد.

وسنة رسول الله تفسير للقرآن العظيم، ويلونها لا يمكن إدراكه وفهمه صحيحاً سليماً كاملاً، ومن فارق بين القرآن والسنة قال في القرآن ما أراد وما شاء فإن السنة تحرس القرآن العظيم وتحفظه وتصونه من طمع الطامعين وإفساد المفسدين، ولذلك ينشؤون حول الحديث النبوي الشريف شكوكاً ليظهروا عدم ثقافتهم ثم ليفسروا آيات القرآن كيف يشاؤون وليذكروا معانيها حيث يريدون، ومن بين دلائلهم في هذا المجال، احتجاجهم بالروايات التي وردت عن النبي في النهي عن كتابة غير القرآن، ويؤكدون تأكيداً خاصاً على عادة العرب في عدم الكتابة، فلما الثاني فقد ذكر محمد بن حبيب في المحبر والبلاذري في فتوح البلدان، والخطيب البغدادي في تقييد العلم، أن كون العرب أمة أمية لا يعني أنهم لم يكونوا يعرفون الكتابة، ولم يكن يكتبون شيئاً فإن كان بينهم عدد غير قليل يعرفون الكتابة، ولما جاء الإسلام وحظهم على طلب العلم انفتحوا إليه انفتاحاً وأقبلوا عليه إقبالا، وقد جاء في أول وحي ذكر القراءة والتعليم وآلة الكتابة.

يقول د. محمد عجاج الخطيب:

مما لا شك فيه أن الكتابة انتشرت في عهد النبي على نطاق أوسع مما كانت عليه في الجاهلية، فقد حث القرآن الكريم على التعلم وحض رسول الله على ذلك.... واقبضت طبيعة الرسالة أن يكتب المتعلمون، القراءون، الكتّابون، فالوحي يحتاج إلى كتاب، وأمور الدولة من مراسلات وعهود ومواثيق تحتاج إلى كتاب... وقد كثرت الكتّابون بعد الإسلام فعلا ليسلوا حاجات الدولة الجديدة، فكان (لرسول الله) كتاب للوحي بلغ عددهم أربعين كتابا، وكتاب للصدقة، وكتاب للمداينات، والمعاملات وكتاب للرسائل يكتبون باللغات المختلفة. وكان أثر غزوة بدر كبيرا حيث قرر رسول الله لأسرى بدر بأن يفدي كل واحد منهم (يعرف الكتابة) نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة والقراءة (2)، وكانت المساجد التسعة إلى جانب المسجد النبوي كمدارس يتعلمون فيها القرآن الكريم والقراءة والكتابة كما كانت إلى جانب هذه المساجد كتّاب يتعلم فيها الصبيان الكتابة والقراءة (3).

ولما نهى النبي عن كتابة غير القرآن وكيف يمكن التوفيق بينه وبين ما ورد عنه في الإذن لبعض أصحابه للكتابة عنه فقد بسط القول فيه الخطيب البغدادي في تقييد العلم والحافظ ابن حجر العسقلاني في هدى الساري في مقدمة فتح الباري، والشيخ عبد الرحمن مباركفوري في مقدمة تحفة الأحوذى، والدكتور محمد عجاج الخطيب في "السنة قبل التلوين"، والدكتور محمد حميد الله في مقدمة (بالأردنية) لصحيفة همام بن منبه والدكتور رفعت فوذي عبد المطلب في صحيفة همام بن منبه، والأستاذ محمد محمد أبو زهو في "الحديث والمحدثون" والدكتور أكرم ضياء العمري في "بحوث في تاريخ السنة المشرفة" والأستاذ عبد الفتح أبو غدة في "لمحات من تاريخ السنة وعلوم

الحديث" والدكتور محمد مصطفى الأعظمي في "دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه" والأخير من أبسط وأوثق ما كتب في الموضوع إلى الآن (4)، ولما كانت هذه المبسوطات تحتاج من القارئ إلى وقت كثير، بما لي أن أعمل في ذلك مقالة وجيزة لتظهر الحقيقة ولتبين حالة الحديث النبوي في تلك الحقبة التي هي أهم العصور التي مر بها لتتضح للناظر المنصف العادل ثقافته، وليبين له أنه لم يحدث انقطاع ولو ساعة واحملة في التسلسل الزمني في رواية الحديث النبوي الشريف كتابة من عصر النبي إلى عصرنا هذا، ولله الحمد والمنة.

قد وردت ثلاث روايات عن النبي جاء فيها ذكر النهي عن الكتابة:

وهنا الروايات الثلاث رويت عن ثلاثة من أصحاب النبي وهم:

أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه

أبو هريرة رضي الله تعالى عنه

زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه

أما حديث زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه فقد رواه الخطيب البغدادي في تقييد العلم (5) عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، قال: دخل زيد بن ثابت على معاوية فسأله عن حديث فأمر أنسا أن يكتبه، فقال له زيد: إن رسول الله أمر أن لا نكتب شيئا من حديثه فمحاها، وسند هذا الحديث منقطع لأن المطلب بن عبد الله لم يسمع من زيد. (6)

وحديث أبي هريرة فقد روي عن طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بلغ رسول الله أن ناسا قد كتبوا حديثه، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما هذه الكتب التي بلغني أنكم قد كتبتم، إنما أنا بشر، من كان عنده منها شيء فلنأت بها

فجمعناها فأخرجت، فقلنا: يا رسول الله! نتحدث عنك؟ قال: تحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار. (7)

إن راوي هذا الحديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعفه عدد كبير من علماء الحديث فروايتهم هذه منكورة. وأما حديث أبي سعيد الخدري ففيه: أن رسول الله قال:

”لا تكذبوا عني، ومن كذب عني غير القرآن فليمحاه، وحديثوا

عني ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار“.

هذه الرواية رواه مسلم عن طريق همام عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، واختلف العلماء في وقفه ورفعته، قال ابن حجر العسقلاني: ”ومنها من هل حديث أبي سعيد وقال: الصواب وقفه على أبي سعيد، قاله البخاري وغيره (8)، وكذلك بعد التسليم بأنها رواية مرفوعة، قد اختلفوا في توجيهها من تلك التوجيهات:

إن أحاديث النهي منسوخة بالأحاديث الأخرى التي تذكر إباحة كتابة الأحاديث النبوية الشريفة، وبحسب الانتباه هنا بأن النهي جاء في حديث واحد صحيح وقد اختلفوا في رفعه ووقفه.

إن النهي كان خاصاً بكتابة غير القرآن مع القرآن على ورق واحد خشية الالتباس بينهما.

يقول الدكتور محمد مصطفى الأعظمي: وأميل أنا إلى التوجيه الثاني

للسبب الآتية:

(أ) أملاً النبي وكذلك كتابة الصحابة للأحاديث النبوية التي وصلت درجة التواتر. فقد أملى النبي على عدد من الصحابة... كما أرسل مئات من الرسائل بإملائه إلى مختلف الأمراء، هذه الرسائل ولو أنها تشتمل على عمليته من الأمور

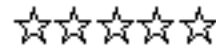
الإدارية لكنها تعتبر من الأحاديث النبوية ويأمرنا القرآن بالتأسي برسول الله فيقول: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة (9) كما يطالب القرآن بتسجيل الديوان التجارية، لذلك فإننا نميل إلى أنه لم يكن هناك نهى عام عن كتابة الأحاديث النبوية، بل كان هناك تنبيه إلى أن لا يكتب شيء، مع القرآن من الكلمات التفسيرية أو نحو ذلك لتلا سبب الالتباس.

(ب) إباحة النبي كتابة الأحاديث النبوية.

ومن ناحية أخرى نجد أحاديث عامة صحيحة فيها تصريح من النبي بالكتابة. (10) وقد ذكر الدكتور محمد مصطفى الأعظمي في الباب الرابع من كتابه الجليل "دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تلويحه" كتابة الصحابة والكتابات عنهم في الفصل الأول وكتابات التابعين والكتابة عنهم في الفصل الثاني، وكتابة صفار التابعين والكتابة عنهم في الفصل الثالث، كما ذكر كتابة بعض صفار التابعين وأتباع التابعين والكتابة عنهم في الفصل الرابع، وعنوان الباب الرابع هذا هو "تقييد الحديث من عصر النبي إلى منتصف القرن الثاني الهجري على وجه التقريب. (11)

وكانت في هذه الأعصر الأربعة مئات من مجموعات مكتوبة وربما كانت أكثرها غير مرتبة ترتيباً فقهياً كما لم تكن بويت تبويها معروفاً ظهراً بظهور المؤطا للمالك رحمه الله تعالى فأعجب العلماء والمتعلمون بتأليف المؤطا إعجاباً شديداً، فتناولوها وتداولوها واتبعوا أسلوبها وحاكوا ترتيبها وتبويبها فصار طريقة متبعة فما زالت المجاميع الحديثة تظهر منذ ذلك العصر الذي ظهرت فيه المؤطا، في صورتها وطريقتها، حتى اختلف تلك المجاميع السابقة لأن المؤطا والمجاميع التي ظهرت بعدها متبعة طريقتها وأسلوبها، قد حلت محل المجاميع

السابقة ولعلّ الذي قال: إن المؤظا هو أول مجموعة دوت في الحديث فأنما يريد أنها أول مجموعة ظهرت بهذا الترتيب وبيت بهما التبريب حتى اتبعتهما المجماميع الأخرى في الحديث النبوي الشريف، وليس المراد بهذا القول بأن الحديث النبوي الشريف كان ينقل قبل المؤظا شفاهة وكتب هذا المؤظا، وبهذا يتبين أنه لم يكن هناك أي انقطاع في نقل الحديث كتابة من عصر النبوة حتى عصر التدوين الذي شاعت فيه مبسوطات ومجاميع ومسانيد ومعاجم في الحديث.



هو امش

1. Arabic Literature to the End of Ummayyad Period: P4
Cambridge University Press. G. Britian 1983.
- (2) الدكتور محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين ص ٢٩٨، دار الفكر.
بيروت الطبعة الثانية ١٩٧١م.
- (3) الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٢ ص ١٤، دار صادر بيروت.
- (4) أنظر السنة قبل التدوين: ص ٢٩٨ وما بعدها، ويقارن مع ذلك من مصادر
الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد فصول في الموضوع، طبع بدار
المعارف بمصر.
- (5) محمد مصطفى الاعظمي: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ
تدوينه: ج ١، ص ٧٩، طبعه المكتب الاسلامي بيروت / دمشق
١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م في المجلدين.

- (6) أنظر إلى تهذيب التهذيب لابن حجر ج ١٠، ص: ١٧٩، المطبعة الإسلامية، بيروت - دمشق
- (7) الخطيب البغدادي: تقييد العلم: ص ٢٩-٣٢، طبعه المكتب الإسلامي بيروت/دمشق
- (8) المحدث الفاضل للرامهرمزي: فتح الباري ١/٢٠٨ و ص: ٣٧، طبعه المكتب الإسلامي بيروت، دمشق.
- (9) الأحزاب: ٢١
- (10) أنظر دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: ج ١، ص ٧٩ المكتب الإسلامي بيروت، دمشق.
- (11) أنظر دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: ج ١، ص ٨٤ إلى ٣٢٥، المكتب الإسلامي بيروت، دمشق.

